المحاضرة الأولى: فكرة التنظيم الدولي

تمهيد

فكرة التنظيم الدولي فكرة قديمة تمتد إلى عصور غابرة حيث عرفت الحضارات القديمة (الفرعونية - الرومانية - اليونانية - الفارسية - الصينية) أنواعا مختلفة من التحالفات بين المدن والتجمعات القبلية. غير أن أغلب الباحثين في تاريخ التنظيم الدولي يعتبرون أن الإرهاصات الأولى للتنظيم الدولي في شكله المعاصر إنما تعود لبداية القرن 19 و بالتحديد لمعاهدة فيينا عام 1815 حين اجتمعت الدول الأوروبية من أجل وضع المعالم لحدودها

قدم المفكرون الغربيون مشاريع عديدة للتنظيم الدولي، اتخذ بعضها طابعا أوروبيا متعصبا، و حاول بعضها الآخر الانفتاح على بقية دول العالم، كما كان للمفكرين العرب إسهامات متميزة حاولوا من خلالها البحث عن سبل التعاون بين شعوب الدولة الإسلامية، و حد أدنى من التعايش مع الأمم الأخرى.

أولا: فكرة التنظيم الدولي عند المفكرين الغربيين:

لما كانت القوة ما تزال هي الأساس في تحديد إطار الاستراتيجيات للدول، وهي المحرك لأنماط العلاقات الخارجية وتقرير طبيعة أهداف سياساتها، فإن الأقوى كان وما زال يستغل هذه القوة لفرض مصالحه على الآخرين دون اعتبار لمصالحهم، وبغض النظر عما يسببه من أضرار لهذه المصالح، من هنا كانت فلسفة (الحق القوة) هي السائدة في المجتمع الدولي و في التعامل الدولي، أما الأخلاقيات فتقع في مكان ما بينهما ، انطلاقا من هذا الواقع ونتيجة الحروب التي لم تتوقف عبر التاريخ، قام منظرو السياسة الدولية الغربيون بوضع النظريات لإقامة السلام العالمي، ونظام الأمن الجماعي لردع المعتدي مهما كان قويا أو ضعيفا لتمكين المجتمع البشري من العيش بسلام.

لذلك تعود البدايات الأولى لفكرة التنظيم الدولي، إلى اهتمام بعض المفكرين، وذلك منذ القرن الرابع عشر الميلادي، حيث وضعوا مؤلفات تدعو إلى التكتل والتنظيم في أوروبا، وقد أسفرت بعض هذه المحاولات عن وضع مشروعات للسلام ، ومن هذه المشروعات والمقترحات النظرية، في الكتب الغربية، للمفكرين والفلاسفة الغربيين مشاريع كل من **بيار دوبوا**، والوزير سولي، والراهب **امريك كروسيه**، والراهب **وليام بن**، والفيلسوف **بنثام** .

من هنا بدأت محاولات بعض المفكرين الغربيين بمحاولات فكرية قدموا من خلالها مشروعات تهدف إلى تنظيم المجتمع الدولي و إشاعة روح التعاون بين جماعاته المتباينة، و من بين هذه المحاولات ما يلي :

أ. / **مشروع بيار دوبوا** (1250-1323): *Pierr Dubois* يعتبر أول أوروبي عالج موضوع نظام دولي جدير بتحقيق التعايش السلمي بين بعض الدول ، وقد دعا إلى إقامة عصبة أمم أوروبية مسيحية صليبية تشترك فيه كافة دول أوروبا الغربية لتتمكن من تجديد الحروب الصليبية ضد الشرق الإسلامي، واستند مشروعه إلى الأفكار التالية:

ـ تكوين مجلس اتحادي يضم دول أوروبا الغربية، و ذلك لدراسة القضايا الأوروبية و وضع الحلول لها.

- تعيين لجنة من المحكمين من طرف مجلس الاتحاد تتكفل بانتخاب بعض رجال الدين والقضاة المدنيين.

- رفع الأمر إلى البابا عند رفض أحد الأطراف المتنازعة الخضوع لقرار التحكيم.

وقد اعتبر هذا المشروع محليا لاقتصاره على الدول المسيحية في غرب أوروبا، و أن هدفه يكمن في محو العار الذي أنزله المسلمون بالجيوش الصليبية.

ب./ مشروع الوزير سولي (1560-1641):*Sully* فرنسي، فكر في تأسيس جامعة كبرى للدول المسيحية تظم 15 دولة أوروبية، وقد دعا مشروعه الذي عرضه عام 1634 إلى إقامة منظمة على شكل اتحادي في إطار جامعة مسيحية تضم الدول المسيحية الخاضعة لمختلف الأنظمة السياسية، و اقترح تقسيم الاتحاد إلى 15 منطقة متساوية في القوة و الاتساع وبذلك تكون كفيلة بالقضاء على الأطماع و أسباب الحروب. لكن مشروعه لم يحظ بتقدير الملوك لأنه ليس من السهل على الدول الكبرى أن تتنازل عن قطعة من أراضيها، فعاد لتعديل المشروع و التنازل عن فكرة المساواة ليميل إلى ترجيح عنصر القوة مقترحا أن يتم توزيع المقاعد في المجلس الاتحادي للجامعة وفق قوة الدولة العضو.

ما يلاحظ على مشروع **سولي** أنه أيضا تجمع صليبي مسيحي أشمل من مشروع دوبوا يجمع الكاثوليك و البروتستانت و الإصلاحيين في أوروبا.

ج./ مشروع الفيلسوف جيريمي بينثام (1748-1832):*Jeremy Bentham* اقترح الفيلسوف الإنجليزي بينثام تنظيما دوليا ينبذ الاستعمار و يؤدي إلى تخفيض التسلح و تشجيع التبادلات التجارية بين الدول و تكوين محكمة للفصل في المنازعات بين الدول كما دعا إلى إنشاء مجلس اتحادي يضم نائبين عن كل دولة تكون جلساته علنية لتمكين الرأي العام العالمي من الإطلاع على مضمونها.

فنجدهقد أسهم في إثراء المدرسةالغربية مساهمة متميزة تضمنها كتابه" مبادئ القانون الدولي "وجاءت تحت عنوان " **مشروع لسلام عالمي دائم**" أعلن فيه أن السلام غير قابل للانقسام، وإن العالم لا يمكن أن يكون نصفه عبيدا ونصفه أحرار، ويكون لديه أدنى أمال في تحقيق السلام، لذلك ينبغي أن تسعى كل المؤسسات السياسية، لصيانة الحقوق الطبيعية للإنسان...، فمشروعه يهدف إلى تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد.

غير أن **خليل اسماعيل الحديثي** يعتقد أن الكثير من المفكرين قد بالغ في إضفاء الصفة الإصلاحية على المشروعات التي دعا إليها هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، إذ لم تكن تلك الأفكار في حقيقتها محض دعوات إصلاحية مجردة لإقامة تنظيم دولي هدفه إقرار السلام في العالم ، وإنما هي مشروعات تنطوي في معظمها أساسا على إيجاد تحالفات أوروبية غرضها استنهاض همم ملوك أوروبا وحكامها لنبد خلافاتهم وحر و بهم والدعوة إلى الوقوف بوجه العالم الإسلامي ومحاربة الدولة العثمانية التي باتت جيوشها تطرق أبواب أوروبا في هذه الحقبة ، فمشروع **بيير ديبواه** مثلا ، وان كان يدعو الى التعايش السلمي و إحلال الوفاق وحل المنازعات سلميا ، إلا أن ذلك كله لا يتعدى نطاق أوربا المسيحية.

ومنذ أوائل القرن السابع عشر بدأ بعض المفكرين في أوربا ، ينادون بضرورة إنشاء هيئة دولية تقوم على حفظ السلام، وتشجيع التعاون بين مختلف بعد، الدول، حيث أبرمت معاهدة وستفاليا عام 1648 التي وضعت حدا لحرب الثلاثين عاما(1618-1648) وأرست مبادئها الأربعة المعروفة منها على سبيل المثال التأكيد على وجود العائلة الدولية وفكرة المؤتمر الدبلوماسي والعلاقات الدبلوماسية.

ولكن عندما كثرت التدخلات في شؤون الدول الصغرى وكادت أن تمتد إلى أقطار القارة الأمريكية ثارت بريطانيا على ذلك وأعلنت أن أي تدخل في الدول الأوربية في المستعمرات الإسبانية يعد عم لا عدائيا موجها ضدها ، وشعرت الولايات المتحدة أيضاً بالخطر الأوربي فقامت تنادي بمبدأ **مونرو** وتضامن دول القارة الجديدة ، وهو البيان الذي أعلنه الرئيس الأمريكي جيمس مونرو في رسالة سلمها للكونجرس الأمريكي في 2ديسمبر 1832.

وأوضح الرئيس مونرو في رسالة للكونغرس قائلا بأن ((النظام السياسي للقوى الحليفة يختلف بصورة أساسية عن النظام في الولايات المتحدة الأمريكية "و أكد كذلك "أننا يجب أن نعتبر أي محاولة من جانب هذه الدول لمد نظامها إلى هذا الجزء من نصف الكرة الأرضية مصدر يهدد أمننا و سلامتنا)).

وفي أوائل القرن العشرين الميلادي، أعطى الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت حياة ومعنى جديدين لمبدأ مونرو، ووسع من نطاق مبدأ مونرو بما أطلق عليه سياسة روزفلت ليبرر التدخل في شئون دول البحر الكاريبي في حالة ظهور نزاعات من شأنها قصم عرى العلاقات التي تربط بين المجتمع المتحضر، ولم يكن روزفلت وهو ينادي بذلك يطالب بمنح الولايات المتحدة حق الغزو أو حتى حق التدخل الدائم ، فقد أشار إلى أن الضعف والممارسات الخاطئة في أي من الدول الأمريكية الصغيرة ربما تغري الدول الأوربية بالتدخل .

ويتضح مما سبق أن قواعد القانون الدولي كان يتسم بطابع أوروبي لا يغترف إلا بالدول الغربية المسيحية وبحدودها ، وغلب عليه الطابع الديني والسياسي، ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ هذا الطابع يخف تدريجيا مع قبول تركيا وبعدها اليابان كأعضاء في المجتمع الدولي.

ثانيا: فكرة التنظيم الدولي عند العرب والمسلمين:

من المعلوم أن الوضع الذي ميز تاريخ الدولة الإسلامية كان يختلف تماما عن أوضاع أوروبا و العالم الغربي، فالدولة الإسلامية تقوم على فكرة الأمة الواحدة التي لا تعرف التناحر ، و من هذا المنطلق قسم الفقهاء المسلمون المجتمع الدولي إلى دارين دار الإسلام ودار الكفر التي ينبغي للمسلمين تبليغها رسالة الإسلام،و على الرغم من ذلك فقد عرف الفكر العربي الإسلامي بعض المقترحات لإنشاء مجتمع دولي يسوده نوع من التعايش و الانسجام بين وحداته.

لذلك نستطيع الجزم بأن التاريخ الإسلامي لا ينطوي على أية دعوة إلى إقامة اتحاد أو تنظيم دولي بالمعنى الحديث للكلمة ، فلم يفكر المسلمون في إقامة هذا الكيان لسبب بسيط أن أنهم لا يعترفون بدين غير الدين الإسلامي ، بالتالي لا يعترفون بوجود دول غير الإسلامية، فالتنظيم الدولي داخل الديار الإسلامية لم يكن ممكنا لأنها كانت دولة واحدة مترابطة، والجمع بين دول إسلامية ودول مشركة في تنظيم واحد أمر غير ممكن .

رغم كل ذلك لم يخلو التاريخ العربي و الإسلامي من أفكار وآراء تدعو وتقر بضرورة التوحد بين مختلف الدول ، وقد تأثر المفكرون العرب في الماضي بالفلسفة اليونانية فدعا بعضهم إلى تأسيس مجتمع دولي على غرار جمهورية أفلاطون. ومثل الفارابي هذا الاتجاه في القرن العاشر، أما في العصور الحديثة فقد تألم بعض المفكرين الانقسام العالم الإسلامي على بعضه وقيام دول فيه تخضع لنفوذ أجنبي فراحوا يطالبون باتحاد، أي إنشاء تنظيم دولي في داخله ويعتبر الكواكبي رائدا في هذا الاتجاه، وعليه سنقدم موجزا لبعض أفكارهما في المجال:

أ/ أبو نصر محمد الفارابي (872-950): تأثر الفارابي بالفكر اليوناني عند أفلاطون و أرسطو و اعتبر أن المجتمعات البشرية شبيهة بالأفراد يحتاج أن يتعاون بعضها مع بعض لتتكامل و تزدهر ، فهو كما يرى أفلاطون وأرسطو أن الإنسان مفطور بطبعه على الاجتماع ، فهو يحتاج في حياته الخاصة والعامة إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها لوحده ، إلا بالاجتماع وهذا التعبير الأخير تعبير فلسفي مأخوذ من مذهب أفلاطون وأرسطو، إذ أن الكمال المطلق عندهما هو السعادة. والسعادة أن يعبد للإنسان طريق القيام بالأمور التي تخصه وهي الأعمال التي تصدر عن فكر وروية.. فالفارابي يريد أن يقرر أن السعادة نفسها لا ينالها الإنسان إلا بالتعاون، وخاصة التعاون الفكري والناس قاطبة في حاجتهم إلى التعاون سواء ، فالاجتماع ظاهرة طبيعية وليس شيئا مصطنعا.

بهذا المعنى فنظرية التنظيم الدولي تتلخص عند الفارابي في ما يلي:

- أن الإنسان مخلوق مجتمعي بفطرته لا يستطيع العيش إلا بالتعاون مع غيره.
- أن الحاجة الملحة هي التي تدفع الشعوب والمجتمعات للاتحاد والتكامل.
- أن اتحاد شعوب المعمورة يجب أن يتم بوجود قائد ورئيس ، يتصف بصفات تسمو عن الجميع.

ب/عبد الرحمن الكواكبي (1848-1902): جاءت أفكار الكواكبي ضمن حركة التجديد و الإصلاح التي نادي بها جمال الدين الأفغاني، فنادى مع آخرون بتنظيم إسلامي يقوم على ثلاث هيئات: جمعية عامة، و هيئة عاملة و هيئة استشارية، فكان مشروعه شبيها بالمشاريع الأوروبية في عهده، و ذلك لتأثره بحركات الإصلاح عند الغربيين.

ففي كتابه **أم القرى** الذي دعا فيه الى إنشاء رابطة أو جامعة إسلامية عن طريق عقد مؤتمر سنوي في مكة يحضره مندوب عن كل قطر أو شعب من الشعوب الإسلامية ، ويناقش المؤتمر مشكلات العالم الإسلامي ويحث على التمام عناصر القوة بالتعليم واكتساب العلوم والفنون النافعة ، باعتبارها الأسس اللازمة للنهضة والتحضر ، ولقد أسهب الكواكبي في إيراد التفاصيل التنظيمية الدقيقة لمشروعه.

فاقترح الكواكبي أن يقوم التنظيم الإسلامي على ثلاث هيئات :جمعية عامة ، وهيئة عاملة ، وهيئة مستشارة ، والجمعية العامة تجتمع مرة في السنة ولا يجوز أن يتخلف عنها أي عضو ، ومن اختصاصاتها انتخاب أعضاء الهيئتين العامة ورئيس الجمعية العامة لمدة ثلاث سنوات ، والجمعية تشرف على السياسة العامة للمنظمة وتضع ميزانيتها، ومركز الجمعية يكون في مكة ولا تخضع الجمعية لحكومة ما.

وقدوكز عبد الرحمان الكواكبي على قضية الشورى كوسيلة فعالة في جمع وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية واحدة، ذلك أن العالم الإسلامي يظم شعوب متعددة تختلف في العرقيات والعادات والتقاليد وحتى في نظرتها لأسلوب الحكم، وبالتالي فإن أي مشروع يهدف لتوحيد العالم الإسلامي أو أي نظام حكم معين يجب أن يحترم هذه لخصوصيات، وأن يشرك جميع ممثلين هذه الشعوب في البحث عن مواطن الخلل والعلل في كل مجالات الحياة وإيجاد البدائل والحلول المناسبة لها، ولا يتم هذا إلا بالشورى التي تعطي كل واحد منهم الحرية في طرح ما يخدم من يمثله وما يخدم الأمة الإسلامية قاطبة.

الخلاصة التي يمكن الوصول إليها من خلال أفكار عبد الرحمان الكواكبي بالرغم من أن مقترحه حول إنشاء الرابطة أو الجامعة الإسلامية وحقيقة الاجتماع في مكة كان متخيلا ولم يحدث على أرض الواقع، إلا أنه أبان عن حقيقة أن الكواكبي كان يعرف مكمن الداء في العالم الإسلامي في ذلك الوقت وقد شخص الدواء بدقة من خلال اجتماع المسلمين على كلمة واحدة وعلى مشروع واحد، فلم يكتفي بعرض الفكرة والدعوة للاتحاد فحسب بل وضع مخططا واقعيا مدروسا لإنجاح المشروع على أمل أن يقوم المسلمون بإنجاحه في المستقبل.